المحاضرة العاشرة: المدرسة التونسية الحديثة وروادها

مقدمة

بعد فترة من الركود في تونس دامت 15 سنة من 1881 تاريخ انتصاب الحماية إلى غاية 1896 تاريخ تأسيس الجمعية الخلدونية، اتجه المثقفون التونسيون إلى العناية من جديد بالتاريخ التونسي، إبرازا لعظمته وتحريكا للهمم لبحث مستقبله على نحو ما تقتضي عظمة ماضيه.

وكانت دروس التاريخ بالخلدونية تحرك العناية بمباحث التاريخ والحرص على إحياء الآثار التونسية والتنويه بالماضيين من عظماء التاريخ ورجال العلم والأدب، ففتحت الصحف التونسية أعمدتها لنشر المقالات عن المعالم الأثرية الإسلامية وأعلام التاريخ الإسلامي.

1- روادها

أ- البشرر صفر 1865 – 1917: يعتبر من أبرز قادة الحركة الفكرية بتونس أواخر القرن 19م وأوائل القرن 20م، حتى استحق لقب "أبي النهضة التونسية الثاني" بعد خير الدين باشا التونسي، ويعتبر من مؤسسي الجمعية الخلدونية وقد استرعى البشير صفر الانتباه بدروسه القيمة التي كان يشرح فيها الحقائق الاستعمارية، ويسلط الأضواء على الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامي، ويكشف النقاب عن الأخطاء والنقائص المتسببة في ضعف أغلب البلدان الإسلامية وبفضل تلك الدروس ذاع صيته بين شبان ذلك الجيل.

ولد بمدينة تونس يوم 27 فيفري 1865، درس في المدرسة الصادقية أوفدته الحكومة التونسية لإتمام دراسته الثانوية بمعهد "سان لويس" بباريس زار خلالها معالم العاصمة الفرنسية ودرس هندستها المعمارية وتاريخها.

أما المواضيع التي كان يتطرق لها في محاضراته فيمكن تلخيصها فيما يلي:

- ظهور الإسلام وانتشاره.
- بداية الخلافة الإسلامية وتنظيمها.
- الفتوحات الإسلامية واعتناق الأقطار المفتوحة للإسلام.
- فتح شمال إفريقيا والاستيلاء عليه من قبل القواد العرب الذائعي الصيت.
- هجوم الجيوش الإسلامية على أوروبا والتوغل في إسبانيا.

– الثورات البربرية.

– سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

التجأ إلى الجريدة الأسبوعية الناطقة بالعربية "الحاضرة" التي أسسها المرحوم علي بوشوشة وأشرف على خطوطها، فنشر فيها عدة فصول حول المسائل الاجتماعية والسياسية، وكان ينتهز كل فرصة لتنبيه من يهمهم الأمر إلى خطورة الركود الذي يتنافى مع أبسط مقتضيات التطور العصري.

كان بشير دوما وأبدا إلى الأخطار المحدقة بالمجتمع الإسلامي الخامل، فلم يكن همه الدعوة إلى تقليد الغرب تقليدا أعمى، بل كانت غايته حث المضطلعين بمهمة السهر على بقاء المجموعة الوطنية، على نبذ الجمود والسعي إلى التوفيق بين مكاسب حضارة وثقافة لا شك في تفوقهما وبين مستجدات العصر الحديث، سواءً في الميدان الفكري أو في الميدان العلمي، مع الرغبة الصادقة في استخلاص جميع النتائج منها.

نظم بالخلدونية دروسا في اللغة الفرنسية ترمي إلى تدريب طلبة الجامع الأعظم على تلك اللغة وتهدف إلى تمكين مدرسيهم من اكتساب أداة ناجحة تسمح لهم بالتخلص من تلك العزلة الثقافية التي حكم بها عليهم سلطان الرقابة والخوف من المغامرة.

مؤلفاته

– مفتاح التاريخ: صدر سنة 1928، يتضمن مجموعة من الدروس التي ألقاها في الخلدونية من سنة 1897 إلى سنة 1908، تاريخ تعيينه واليا على سوسة، يبحث هذا الكتاب في تاريخ المصريين القدامى والرومان والإغريق والفينيقيين والقرطاجيين، كما بحث في التاريخ الإسلامي وتاريخ تونس في القديم والحديث وكذلك تاريخ بعض الأقطار الأوروبية مثل فرنسا وإيطاليا وانجلترا.

أصيب بمرض عضال في أواسط شهر أبريل 1917 ثم أدركته المنية على إثر عملية جراحية.

ب– محمد بن الخوجة 1869 – 1942 العالم والكاتب والموظف الكبير

ولد في شهر فيفري 1869 وهو رابع أبناء الشيخ البشير بن الخوجة، التحلق بمدرسة الصادقية والتي سرعان ما تعود فيها على حياة المعهد، أقبل على دراسة الآداب العربية إضافة إلى المواد الأخرى كالفرنسية والرياضيات.

انتدب فور تخرجه إلى قسم الترجمة من طرف إدارة الحماية الفرنسية، ثم انتقل إلى قسم المحاسبة، ساهم بانتظام في تحرير جريدة "الحاضرة".

تم انتخابه عضوا في الهيئة المديرة لمعهد الخلدونية الحر الذي تأسس سنة 1896م، أصدر "الرزنامة التونسية" المليئة بالمعلومات التي لم يسبق نشرها والمذكرات التاريخية والأدبية والخلاصات العلمية المتعلقة بأحدث الاختراعات والمكتشفات والنوادر الشيقة" ليعين بعد ذلك مديرا للمطبعة الرسمية سنة 1902م وعضوا في اللجنة المكلفة بتأليف الفهرس العلمي للمكتبة العبدلية بجامع الزيتونة، واستغل وجوده على رأس المطبعة إلى غاية سنة 1915م لنشر عدد من أبحاثه ومؤلفاته وطبع بعض الكتب التونسية.

ازداد إنتاجه غزارة بعد إحالته على التقاعد عام 1934م فتفرغ للبحث والدراسة وتحرير الفصول التاريخية ونشرها في مختلف الصحف والمجلات التونسية لاسيما "المجلة الزيتونية".

مؤلفاته

– **الشيخ عمر والحاج فتوح:** وهي محاورة بين هذين الشخصين حول آداب رمضان، بسيط في أسلوبه ولغته معانيه وأعراضه، وهو أول تأليف صدر له وكان ذلك سنة 1898م.

– **الرحلة الناصرية:** هي الرحلة التي قام بها الملك الناصر باي إلى باريس سنة 1913م، أخذ معلوماتها من صهره "مصطفى دنقزلي" الذي كان يشغل شيخ مدينة تونس.

– **تاريخ بعالم التوحيد في القديم والجديد:** طبع سنة 1939 وهو خاتمة موسم إنتاجه الفكري الذي دام 43 عاما.

– **الرحلة القلبارية:** وهي رحلة رئيس الجمهورية التونسية "أرمان قليار" إلى تونس، ولقد حرصت الإدارة العليا على توزيع كتابي الرحلتين المحررين بأسلوب بسيط ومزاجي في متناول الجمهور المثقف في كامل أنحاء شمال إفريقيا الأمر الذي زاد من شهرة المؤلف.

إضافة إلى كل ذلك قدم إلى مؤتمر الشمال الإفريقي المنعقد بباريس سنة 1908م عدة بحوث حول القضاء الشرعي في الإسلام ونظام التعليم بجامع الزيتونة، متبوعة ببعض الملاحظات والاقتراحات التي أثارت إعجاب المؤتمرين.